المبحث الأول

(المابعديات) مقولة اصطلاحية

أ. جنيالوجيا المابعديات:

ينحصر المفهوم الاصطلاحي لكلمة ما بعد في حالة التفكيك، والتقويض التي تتجلى في تقسيمات اللغة العربية، ونحوها، وبلاغتها، ومعاجمها التي حددت الجذر الثلاثي بوصفه انطلاقة اسمية، وفعلية، يمكن من خلالها أن تتداول في متن المدونات المعجمية، ولكون المعجم لا يقارب الجذر الثنائي في كون الجذر الثنائي يشكل حرفا ناقصا المعنى في تقسيمات النحو والصرف العربي الذي قسم الكلمة على فعل، وحرف، واسم، ولما كانت (ما) الموصولة في أصل كلمة (ما بعد) تجسد معنى يرتبط بالنحو العربي على أساس تداوليته السياقية، والنسقية، في كون ما الموصولة يمكن أن تتجاوز تحيزها العائدي وصلة الموصول ودلالة الوصل والاتصال إلى معان ودلالة في النحو والسياق، أو الرتبة النحوية التي تشكلت على أساس جملة، فمرة تكون موصولة، ونافية عاملة، وغير عاملة، وكافة مكفوفة، وحجازية، وملغية، واستفهامية، وشرطية...الخ[1] فإن تداوليتها في حدود ارتباطها مع كلمة (ما بعد) أضفى عليها معنى الانقطاع والانفتاح على المستقبل في معناه النحوي، الذي يدل على التجاوز المطلق أو ما سيكون ويأتي.

ولعل كون (ما) الموصولة تشكل أداة تدل على حالة الانقطاع، والانفصال في البعد المعنوي، فإن كلمة بعد واشتقاقاتها اللغوية في المعاجم العربي تعاضد معنى الانقطاع، والانفصال، وإن كان يتجسد في هاجس الظرفية، وسيرورتها القائمة على الزمانية، وبمعيتها المكانية القائمة على الضدية القبلية، فإن كلمة بَعدُ في لسان العرب "ضد قبل، يبنى مفردا، ويعرب مضافا، قال الليث: بعد كلمة دالة على الشيء الأخير، تقول: هذا بعد هذا، منصوب..... وقال الجوهري: بعد نقيض قبل "[2] ويتبلور عمل بعد في كونه أسما، ويكون ظرفا إذ أضيف، والأصل في الإضافة، ويشكل البعد والقبل حدود وتخوم متناهية الأصل في البداية والنهاية فقد قالت العرب لحمد الشيء، أنه لا بعد له، ولا قبل له[3].

ولعل حالة التمركز اللغوي في المعاجم العربية لا يبعد معناه عن حدود المفهوم في الأصول الغربية الذي تداخل فيه البعد اللغوي بالفلسفي والمعرفي، إذ إن كلمة ما

---

(1) ينظر جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني:132/1 ــ 137.
(2) لسان العرب، أبن منظور: مج 1 / 454.
(3) ينظر لسان العرب: 454 – 455.

بعد عند اليونانيين تعني بعد أو وراء الشيء، وتتجلى عند اليونانيين في كونها بادئة لفظية تستخدم في تكوين اشتقاقات وتعني بعد شيء ما، أو الانتقال إلى شيء آخر، ولقد دعا أرسطو الميتافيزيقيا بهذا الاسم الذي يدل على ما وراء الطبيعة، لأن مشكلاتها الأساسية معروضة في رسائل توضع بعد التعاليم عن الفيزيقا بواسطة الوسائل المنظمة لمؤلفات أرسطو[1].

تتعاضد جدلية البداية والنهاية، مع جدلية القبلية والبعدية، في كون معنى البداية يسجل بداية القبلية التي تتأسس على لحظة ضد البعد، ولما كانت البعدية، والقبلية ظرفية زمانية، ومكانية ترتبط بمعية البداية والنهاية بسيرورة الزمن، فإن أرسطو وفي إطار جدله الفلسفي قدم أطروحته في كون أن ليس للزمان بداية، لأن اللحظة التي تفترضها لحظة أولى وتشكل قبلية تجعلنا حتما نفكر باللحظة الأخرى أيضا، أي اللحظة الأسبق، وإذن ليس ثمة مهرب من جدل البداية[2]، التي قامت عليها جدليات فلسفية تطورت إلى مفاهيم وآراء، إذ وجدت نظريات أن عملية ربط البداية بالبعد التاريخي/الزماني تمثل انطلاقتها، وأخرى قامت على غائية المعنى الانعكاسي في ما يتعلق بالبداية، والنهاية، ونظرية وجدت من فكرة الأصل والتأصيل الذي تمثل في مفهوم البداية التي لا تعرف سلفا أي طريق سوف تسلكه[3].

ومما تقدم من معنى كلمة ما بعد في الأصول العربية، والغربية، التي تعمق إشكالية ترسيم حدود المفهوم وتخومه، الذي يمكن من خلاله أن نعرّف مصطلح أو مفهوم ما بعد في كونه يتكون من كلمتين، إذ انفتحت على المعاني الزمانية، والمكانية، والتاريخية، واللحظية، فإن مقاربتنا لهذا المفهوم من خلال بعده المعاصر وارتباطه بالبعديات، يحتم على الباحث أن يربطها بروح العصر، ومتطلباته وبراديغمه العلمي، وما يوحي به في كل فترة تاريخية، وظروف اجتماعية، وفكرية، وفلسفية تتصل بجغرافيات، وقارات معرفية، ودولية مختلفة.

ب ـ فكرة (ما) الموصولة ومحايثتها للمنفيات في العلوم المختلفة:

تنطلق فكرة (ما) الموصولة والبعد من أن زماننا يعمل من تلقاء ذاته على أساس اختلافه "جديده" بالنسبة إلى الماضي. وبذلك كان الجديد ارغانونا ذاتيا يعلق الأمر بنا "نحن" في زماننا وحاضرنا، وعصرنا (الآن أو اللحظة)، وهذه كلها تعابير معادية للفكرة القديمة أو السابقة، وإن كان المسار الذي يسير ويتحرك على ضوئه النفي والبعد الموصول قائما على الاختلاف، والتمايز المتجلي على صعيد التصور الانفصالي، والانقطاعي بين القبل والبعد، الذي تتضمنه المفاهيم الملحقة بالتزامن،

(1) ينظر الموسوعة الفلسفية، إشراف روزنتال، يودين، تأليف مجموعة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين: 425

(2) ينظر بداية الفلسفة، غادامير، علي حاكم، حسن ناظم: 11.

(3) ينظر المصدر نفسه: 22.

والتتابع، ويُشاد على هذا التباين فكرة التعارض بين الماضي والحاضر الذي يتحكم في سلسلة من التمايزات، والانزياحات، والانعتاقات في الوعي الاجتماعي، والثقافي، والتاريخي والفلسفي[1] لكل عصر.

يقودنا هذا التعارض والتمايز بين القبل والبعد إلى فكرة الشراكة أو الرحم الواحد الذي يولد منه (البعد)، فإن الجدلية الضدية بين القبل والبعد، أو القديم والحديث تعمل على تشكيل جنين أو مولود جديد يأخذ اسمه أو كينونته من التعالق بين القبل والبعد، عاملا على تجاوزه في تركيب جديد يشكل ما البعدية (أو الموصولة) التي تحتوي صيرورة التماسف أو الانتماء وللانتماء إلى القبل أو البعد، وبذلك فإن الجينات القديم أو القبلية تتطعّم بالبعدية أو الفكرة الحديثة، مما تمارس بناء جديدا يحمل ولاءً للقديم، ويتجاوزه في الآن نفسه من خلال حقيقة البناء أو التكوين الجوهري لـ (لبعد)، وهو يحمل فكرة متضادة أو مناقضة للفكرة القديمة، وبذلك فإن القديم يكوّن حاضنة دائمة يخرج من رحمها الجديد، وإن كان مشوها أو مهجنا يستبطن في كينونته أو في داخله رماد الفينيق الدائم الحضور، فالفكرة الجديدة أما تهدم أو تعيد إنتاج القديم بصورة جوهرية أو عرضية جديدة من دون أن تلغي جوهره.

في كلا الحالتين لا بدّ أن يقوم الإرث أو الفكر الجديد على خارطة وجغرافية القبل (القديمة)، وإن كان القبل يمثل غيابا دائما بالنسبة لحضورية البعد الذي ترسخ في الفكر الإنساني على حقيقة معرفية منذ منطق أرسطو، مارست نوعا من التصنيف المعرفي أو التحرك في منطقة المتشابهات والمتناقضات، التي ساعدت على معرفة الأشياء وتعريفها، وما فكرة العلة والمعلول أو السبب والنتيجة الأرسطية في الحقيقة إلا ممارسة قائمة بين القبل والبعد المتحايث بالبداية والنهاية، وقد اصطلح عليها فيما بعد بالسبب والنتيجة، ولذلك منذ تأسس المنطق واللوغوس الأرسطي حافظ الفكر الإنساني على منطقة الأشياء وفلسفتها ومفهمتها وتعريفها على أساس التضاد، والتناقض، والتطابق، الذي احتوى في كينونته البعد والقبل.

وربما السلطة الاجتماعية، وروح العصر، ومزاجه الفلسفي، والمعرفي عملت كلها على تأخير أو تقديم البعدية التي حفظها التاريخ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن غاليلو تنازل عن اكتشافه أو بعديته تحت ضغط الكنيسة، فضلا عن أن دارون أخّر بعديته سنينا طويلة خوفا من سلطة الكنيسة، ويمكن عدّ اشتغال البعدية تجاوزا لمنظومة الفكر، والمنطق، ولاسيما في الجانب التاريخي، وما موضوعية أو أرشفت الأعوام على شكل تقويمات إلا لعبة بعدية، ففي التقويمات والقواميس الإسلامية تجلى الحدث على شكل بعدية في سياق قولهم قبل عام الفيل أو بعد عام الفيل، أما في تاريخ

(1) ينظر الذاكرة، التاريخ، النسيان، بول ريكور، ترجمة جورج زيناتي: 456 – 457.

العلوم فإننا نجد عبارة قبل غاليلو، وبعد غاليلو، قبل كانت، وبعد كانت، ومثله هيجل، ومارتن لوثر، وديكارت وغيرهم من العلماء الذي قدموا وطرحوا نظريات تجاوزت حاضرهم وقبليتهم مشكلين نقطة انطلاقة البعدية.

إنّ اندماج البعدية بأداة (ما) الموصولة تحايثت مع فكرة الانقطاع والتجاوز التي اتصلت بالعصر الحديث، ولاسيما في فكرة التخصص الدقيق أو التداخل المعرفي والتصاهر حيث ساعد على تكوين أفكار جديدة، وعلوم جديدة، ولعل فكرة الانقطاع والتجاوز بأداة (ما الموصولة) تعالقت مع الأفكار الجديد المتجاوزة للقديم، ويمكن أن نتلمسها في فروع وعلوم كثيرة منها ما بعد الأخلاق وهو العلم الذي يتجاوز ويعلو على الأخلاق المعيارية، وما بعد المقولات وهي المعاني التي تأتي بعد المقولات الأرسطية، وما بعد المنطق وهو العلم الذي يدرس مفاهيم المنطق وأنساقه، وما بعد النفس الذي يتجاوز دارسات الظواهر النفسية باحثا عن الغيبيات مثل الحسد، والتنجيم، والكف[1]، وما بعد التكوين كمفهوم يرتبط بالتطور الجنيني للكائنات العضوية، وما بعد الرياضيات كمفهوم يدل على النظرية التي تدرس الصفات المختلفة للأنساق والحسابات، والصور، وما بعد المجرات وهو يدل على العالم الذي يوجد وراء المجرة، وما بعد النظرية هي نظرية تبحث في نظرية ما أخرى وتدرس نسق القضايا والمفاهيم لنظرية ما [2]، وما بعد الصناعة، وما بعد الفوردية، وما بعد التيلورية، وما بعد الكينزية، وما بعد البترول، وما بعد عصر المعلومات[3].

إن مقاربة المابعديات المذكورة آنفا التي ارتبطت بحقل العلوم الطبيعية تكشف عن أنها لم تتجاوزها بالهدم أو التقويض كما في بعديات العلوم الإنسانية، إنما عملت على تشكيل فروع وعلوم جديدة أو مفاهيم مرتبطة بالعلوم القبلية مشكلة إضافة تراكمية متصلة بعمقها المعرفي القديم، أما البعديات التي اتصلت بالعلوم الإنسانية التي سنقاربها في أثناء هذا الكتاب في جانبه النظري والتطبيقي، الذي لا يمنعنا من أن نعرج على بعض ما بعديات العلوم الإنسانية التي سنتجاوزها في هذا الكتاب، ولكن لغرض المقارنة بين مابعديات العلوم الطبيعية والإنسانية حتم علينا أن نلمس الفرق والتناقض بين مابعديات العلوم الطبيعية والإنسانية، وأول ما تستوقفنا البعديات في حقل العلوم الإنسانية هو التداخل والاضطراب بين المفاهيم والمصطلحات في جانبها التاريخي، أي الولادة والظهور، فضلا عن الاختلاف أو عدم الثبات على مصطلح واحد للظاهرة التي شكلت بعدية تجاوزت القبلية، تلك التي تعود إلى عامل

(1) ينظر المعجم الشامل، عبد المنعم الحفنى: 720.
(2) ينظر الموسوعة الفلسفية: 425 – 426.
(3) ينظر الثقافة العربية وعصر المعلومات، نبيل علي، كتاب في جريدة، ع24، رقم 89، (4، الأربعاء، كانون الثاني)، 2006 ، يصدر عن منظمة اليونسكو، بيروت: 5.

الاختلاف الجغرافي أو الظروف التي ظهر به المصطلح فضلا عن الخصوصية الثقافية، والفلسفية، والمعرفية لكل بلد من البلدان.

إنّ مصطلح ما بعد الحداثة خضع لاختلاف الباحثين والعلماء في أبوته ومولده فضلا عن تداخله مع مصطلح ما بعد البنيوية، والتفكيكية، واللابنيوية، التي لم يصل العلماء بها إلى نتيجة إلا في سياق الاستعانة بعلم الجغرافية، حيث ساعد الباحثون والعلماء على ربط تداوله، وولادة كل مصطلح ببلد المنشأ، فما بعد البنيوية واللابنيوية فرنسية، والتفكيكية أمريكية، فضلا عن أن هناك من ربط ظهور ما بعد البنيوية بإخفاق النظريات التي ظهرت في بداية القرن العشرين مثل المثالية الألمانية، والماركسية، وعلم الظاهرات، وعلم الظاهرات الوجودي، والتحليل النفسي، والبنيوية القائمة على الألسنية في التماسك، والالتحام ضمن أطار فلسفي واحد ونظرية عامة في العلوم الإنسانية.

إنّ حقيقة مابعد البنيوية تختزل الإخفاق النظري من خلال احتوائها على نظريات ما بعد الظاهراتية، وما بعد الفرويدية، وما بعد الماركسية[1]، ولم تتوقف فكرة البعد عند هذا الحد، إنما شكلت رافدا سياسيا غذى الجانب الأدبي والنقدي لمصطلح مابعد الاستعمار أو ما بعد الكولونيالية، وهي نظرية الخطاب الاستعماري والخطاب ما بعد الاستعماري الذي ارتبط بالدول المستعمرة وقد تجلّى في كتابات ادوارد سعيد، وفرانز فانون، والشاعر السنغالي ليوبولد سنغور[2]، أما ما بعد الماركسية، فقد رفضت معظم مبادئ ماركس التقليدية وأهم كتابها فوكو، وبودريار، وليوتار[3]، ويتماهى مع مابعد الماركسية ما بعد النقد النسوي الإيجابي الذي انتقد حركة النقد النسوي متخذا خطوة بعيدة عن ثقافة الضحية التي نمّتها الموجة النسوية أو النقد النسوي[4]، ويشكل مصطلح ما بعد الأحاديث أو ما بعد روايات الاستبداد بالسلطة عند ليوتار بداية الانطلاقة إلى فكرة ما بعد الحداثة [*]، ونهاية الايديولوجيا

---

(1) ينظر بؤس البنيوية، ليونارد جاكسون، ترجمة ثائر ديب: 11 - 12.

(2) ينظر مدخل في نظرية النقد المقارن، حفناوي بعلي: 66 – 73.

(3) أقدم لك النظرية النقدية، ستيورات سيم، وبورين فان لوون: 131.

(4) ينظر المصدر نفسه: 166.

(*) في الحقيقة أن مذاهب وتيارات ما بعد الحداثة تكشف عن كونها لم تحتوي في وضعيتها الإملائية و الكرافيكية على صيغة الما بعد التي تفصح و تظهر في الما بعد، إنما اختزلت مفهمة الما بعد في داخلها أو كينونتها مثل نظرية التلقي والتأويلية والتداولية والنقد الثقافي والتفكيك...الخ.

أو نقدها[1]، وهناك أيضا ما بعد السياسة، وما بعد الكتابة، وما بعد الرمز، وما بعد الإنسانية[2].

ويمكن عدّ تحيز البعدي لم يستقر على الأداة الموصولة (ما)، إنما نجده قد استعان بأدوات النفي لتمثل انقطاعا جذريا عن الماضي، إذ لم تستطع ما الموصولة التي تشتغل على أساس الصلة بين الجملة القبلية والبعدية التي أضفت مشروعية على ما بعديات العلوم الإنسانية على وفق الاتصال دون الانقطاع، الذي رفضته البعديات حين ارتبطت بأدوات النفي مثل ظهور مصطلح اللابنيوية، اللامعقول، اللاعقل[3]، التي اختزلت بوصفها أداة نفي في وسط الجملة مثل مصانع بلا عمال، وتعليم بلا معلمين، وأفلام بلا ممثلين، وبرمجية بلا مبرمجين، ومركبات بلا سائقين، ومدرسة بلا أسوار، ومجتمع بلا نقد، وأقلام بلا أحبار، هواتف بلا أرقام، وكتابة بلا كلام، ومكاتب بلا جدران، ومكتبات بلا رفوف، وموظفون بلا مكاتب، ورواية بلا نهاية، وسياسة بلا نواب، وترحال بلا انتقال، وحضور بلا قرب، وجنس بلا رقيب[4]، حتى أن فكرة البعد تحولت في بعض الخطابات أو النظريات إلى الفوق، والتحت، والوراء، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما فوق الأخلاق، وعالم المحاكاة ما فوق الواقعية عند بودريار، وما فوق البنيوية، وما فوق الواقعي، والمتافيزيقيا (ماوراء الطبيعة) عند أرسطو والفلسفة اليونانية، وما تحت الشعور، وما خارج الظاهرة، وما وراء الشعرية، [5].

مما تقدم يمكن القول إن محاولة حصر الما بعد في تعريف اصطلاحي يناقض كينونة المابعدية التي تقوم على المتناقضات، والانفصالات، والانقطاعات، وكذلك اللحظية، والتجاوز، والفلوة، والانعتاق المستمر. ولكن يمكننا في الحقيقة أن ننطلق من وجهة النظر التي تقول إن عبارة (مابعد) يمكن أن تشكل كلمة واحدة بوصفها مصطلحا يتصل بروح العصر، والجماعة المفسرة، والمتلقي، والجمهور، الذي يجنسه، ويقننه بوصفه مقولة أصطلاحية تخضع لسلطة العصر وروحه في كون أن مفهوم المابعد ينطوي على تجاوز مستمر من الشكية، وعدم اليقين، وأن حضوره ـــ ما بعد ـ في كل مرحلة، وعصر يضفي عليه تحديدا يخضع للجماعة المفسرة، وعليه

(1) ينظر الايدولوجيا والهوية الثقافية، جورج لارين، فريال حسن خليفة: 190
(2) ينظر الثقافة العربية وعصر المعلومات: 5.
(3) ينظر المعقول واللامعقول في التراث الفكري، زكي نجيب محمود: 357 – 373.
(4) ينظر الثقافة العربية وعصر المعلومات: 5.
(5) ينظر المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة: 725، وأقدم لك النظرية النقدية: 122، الموسوعة الفلسفية: 425 - 430، وما فوق البنيوية،ريتشرد هارلند، ترجمة لحسن أحمامة:25، وهيرمينوطيقيا الشعر العربي، يوسف أسكندر، 44، والاتجاهات النقدية الحديثة، عمر كوش: 26 - 27.

فإن الما بعد ارتبط في الفكر الغربي والعربي على حالة من التجاوز المستمر، وبذلك يمكن أن يحافظ المصطلح على تحديده العصري (الحاضر)، وانفتاحه المستمر على المستقبل الذي يرتبط بسيرورة تاريخية مختلفة تجنسه على حسب المزاج الفلسفي، والمعرفي، والثقافي لكل عصر، وبذلك يتحول من حدود وقوانين التجنيس إلى الانفتاح المستمر بوصفه مقولة اصطلاحية لا يمكن أن تتحدد في رسوم تحافظ على الثبات الاصطلاحي، لأنها في الأصل جاءت لتحارب وتقوض كل تحديد، مما يساعدها في المستقبل أن تتلاءم وتتجانس مع أي جديد يضمن سيرورتها وديمومتها و تجاوزها.

هذا ما يخص حدود المصطلح بوصفه مقولة اصطلاحية، أما فيما يخص معرفة حدود المفهوم وماهية تعريفه، فإننا يمكن أن نتبنى تعريفا نجده جامعا مانعا من خلال قراءتنا التي قدمناها في سياق هذا التمهيد في دلالة كلمة ما بعد لغة واصطلاحا، والتي ارتبطت بكينونة المصطلح في الثقافة الغربية والتي اتفقت على كونه تجاوزا مستمرا.

ما بعد: هو التجاوز، والانعتاق المستمر القائم على التناقضات، والضديات المنفتح على المستقبل بوصفه مقولة اصطلاحية تتحيز لكل قراءة أو جماعة مفسرة تنتمي إليها في كل عصر حاملة في كينونتها روح العصر والمستقبل.